حول «لذعات بريئة...»

توصلنا بالردين التاليين على لذعات ابن عباد احدهما للشاعر المبدع الاستاذ الشنجيطي الذي يعرف القراء تضلعه باللغة وثقافته العالية وعلمه الغزير والاخر من اديب مراكشي نرجو منه في المستقبل ان يحقق ما ينقله من الشعر وقد التزمنا بحذف ابيات كثيرة من مقاله لما فيها من الاخطاء، ومن جملة ما تناوله الاستاذ الشنجيطي في رده مسألة النسيب التي هي محل جدال بين دعاة التجديد والمحافظين سواء في هاته الديار او في غيرها من البلاد العربية، ولعل للنسيب مغزى اعلى مما يتبادر الى ذهن كثير من الادباء، فان الاروبيين يبنون ما يكتبون من روايات وقصص دائماً على المراة والغرام، وفي القرون الوسطى كان فرسان ابطال يجوبون

وإسحق بن عمران والرازي ومن الجغرافيين أمثال ابن عبد الله البكري والشريف الادريسي وابن فضل الله العمري والمسعودي ومن المؤرخين امثال الشرهتاني وابن الجوزي وابن حسن التلميذي وابن بشكوال.

ذكر هؤلاء الفطاحل وذكر غيرهم في كتاب احتفظت به المكتبة الاروبية كتاب في جغرفية افريقيا والمغرب بصورة خاصة ولست أدري كم ذكر من الشخصيات في مؤلفاته التي ضاعت في الفنون الاخرى والتي لم تحتفظ بها المكتبة العربية أو احتفظت بها ولا زالت ملقاة في احدى الخزائن الخاصة الى أن يشاء الله إبرازها وإبراز غيرها من المخطوطات المغربية فتلقي ضوءاً جديداً على العصر المريني وغيره من العصور المغربية وما أيعن فيها من ثقافة وازدهر من حضارة فالحياة الفكرية لم تكن كحياتنا الفكرية الحاضرة ذابلة قاتلة لكل نشاط وسعي بل كانت تتدفق علماً وتفكيراً رغماً عن الاضطرابات المتوالية والصدمات المتتابعة.

«يتبع» سعيد حجي

الوهاد والانجاد لحماية المظلومين واغاثة الضعفاء ويسعون في تلك العصور المظلمة باروبا في اعلاء الحق على الباطل وللكل عشيقة قد لا يكون لها وجود الا في الخيال وتسمى برفيقة الخاطر يستوحيها البطل ويخدمهاله باعماله ويقصد رضاها بمآثره، وقد ينسب غالب المؤرخين حركة الفروسة هاته باروبا الى تاثير العرب والحضارة الاسلامية التي ادخلت على امم الغرب التي كانت اذ ذاك متوحشة الشعور بالجمال ورقة الغرام والشمم والنجدة وغير ذلك من شيم الرجولة الكاملة، وفي كتابنا «المرأة المسلمة» استندنا – من جملة اشياء – على «النسيب» في الشعر العربي ثم على اقرار النبي صلى الله عليه وسلم بعض الشعراء عليه للاشادة بمكانة النساء في المجتمع العربي، فاذا كان الشعراء يستعملون النسيب تقليداً فان للنسيب فيما يظهر اسباباً عميقة خارجة عن موضوع الجدل بين المجددين ومعارضيهم وفي نظرنا القصير انه لا ضرورة في ان يتركه شعراء العصر.

***

النقد و«لذعات بريئة...»

ما الشعر الا شعوري جئت اعرضه
فانقده نقداً شريفاً غير ذي دخل
وأحسن النقد ما يرضى الجميع به
وأسوء النقد ما يفضي الى الجدل

لا يخفى على ذي عقل صحيح أن النقد قسمان: فسم يعرض للذوات، وقسم يعرض للمكتوبات والمنظومات، وكلٌّ له رجال يقومون بشؤونه، وقواعد ترتكز عليها مباحثه. والاول ما يسمى في لسان المحدثين بالتعديل والتجريح وفي لسان الاخلاقيين بالاخلاق. والشق الثاني هو الذي صار يطلق عليه لفظ النقد كحقيقة عرفية لدى الادباء وارباب التفكير، ولا ينكر فضله في تنقية العلوم وزوال ما على الادب من دخان يخشى تكاثره حتى يستحيل سحابة سوداء تحجب الادب عن الاعين والاذان والقلوب التي تبصر وتسمع وتفقه بالفعل.

النقد يفصل الغث عن السمين، ويميز النخالة عن الدقيق، والناقد كيماوي نبيل يحلل الاقوال ويفحصها كما يحلل الكيماوي المواد الطبيعية، فكلاهما محسن للانسانية ساهر على مصالحها،

فالكيماوي يسعى في تحسين مادة الانسان كما أن الناقد يسعى في تحسين روحه التي هي أغلى ما يباع ويشترى.

قد طالعنا في الاعداد الاخيرة من «مجلة المغرب» الغراء مقالتين بامضاء (ابن عباد) تحت عنوان «لذعات بريئة» يلتزم فيهما تتبع الاشعار والكتابات بالنقد الصحيح حتى يزيل الفوضى الادبية السائدة في شمال افريقيا، ويرد المنتحلات الى اربابها والمسائل الى اصولها. وهذا عمل لو تحقّق من الخدمات الجليلة التي يرتاح لها البال وتنشرح بسببها الصدور، لكن الرجل وبالاسف يتصور النقد بصورة تخالف ما يتصوره النقاد الحقيقيون، فيظهر لنا مرة في صورة المحدث أو الاخلاقي يبحث في شخصية الانسان، وتارة في لباس مفكر ينتحل النظريات مجردة عن الدليل، وطوراً في عمامة صوفي يحرق البخور ويهلل ويكبر، حتى اذا كتب ما شاء الله أن يكتب أخذ يناقض كلامه بنفسه، وسأقيم لك براهين على هذه الدعوى حتى يمكنك أن تلمس ما أقول خلال هذه السطور واليك بعضها:

يقول تحت عنوان (شاعرنا المطبوع): «اذ هو كما يقولون شاعر المغرب وبلبله الصداح، والشاعر المطبوع الذي لا يوجد له قرين في النظم والارتجال، تلك هي الالقاب التي يتمتع بها شاعرنا اليوم وقبل اليوم» ويقول فيما بعد: «وفي الحق أن الشاعر القباج له آيات في الشعر سابقة» فهل هذا الا ما يسمى في نظر كل ذي عقل سليم بالتناقض؟

ولعله أراد ان يلقب بالناقض فغلط عند الرسم، قد يمكن ذلك، ويمكن انه لم يتصوره بعد، ولكن «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن» الا أنني الآن لا أقدر ان اجزم باحدهما، فنترك ذلك الى المستقبل فهو كفيل بكل نجاح.

وبعد أن فرغ من هذا الفصل المملوء بما علمت اخذ يفكر في الكون وفي علاقة الشعر مع الشعراء فجر اذياله حتى تلوثت بطين الزقاق، ثم صعد المنار وجعل ينادي بانه اخترع قاعدة يجعلها الباحث في يده كمقياس يقيس بها عند الحاجة وتنفعه عند ما يحاول نقد شعر كشعر عبد الله القباج، فأطرقنا رؤوسنا وفتحنا آذاننا وسكن الضجيج وتشوف جميع السامعين لتلقي هذه النظرية التي يزعم قائلها انها غضة طرية لم يوفق لها من قبله وانما هي وحي الهامي اوصله له تفكيره العميق ومباحثه الممتعة فقال بصوت مملوء فرحاً وعجبا: «فكذلك الشعر عندي تابع لحياة الانسان واطواره، يصدر ضعيفاً ثم يقوى ثم يعود الى ضعفه الأول فيظهر فيه اثر السخف والركاكة وضعف التعبير».

نقول للمخترع الجديد هل لك من دليل على هذه الدعوى وهذه العندية؟

اننا لا نسلم هذه النظرية التي لا يعضدها فكر ولا عادة ولا يسلمها المنطق السليم، وذلك لان الشاعر كلما حنكته التجارب وقلته الايام بكفها العاتي الجبار تكثر حكمته وتقوى عاطفته وتملأ خياله الذكريات:

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة
أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

قد التفتنا الى بعض الشعراء الذين شاخوا حتى سئموا الحياة فوجدنا شعرهم لم يشخ ولم يأته ابان الخريف، نستحضر منهم الآن «ذي الاصبع العدواني» فانه لما احتضر دعى ابنه اسيد فقال له: يا بني ان اباك قد فنى وهو حيّ وعاش حتى سئم الحياة واني موصيك بما ان حفظته بلغت في قومك ما بلغته فاحفظ عني... ثم انه بعد ان اوصاه بوصايا عديدة انشأ يقول:

أأسيد ان مالا ملكت فسر به سيراً جميلا
آخ الكرام ان استطعت الى اخائهم سبيلا
أهن اللئام ولا تكن ☆ لاخائهم جملا ذلولا
ان الكرام اذا تؤا ☆ خيهم وجدت لهم قبولا
ودع الذي يعد العشيرة ان يسيل ولن يسيلا
أبني ان المال لا ☆ يبكي اذا فقد البخيلا

الى أن يقول:

واذا القروح تخاطرت ☆ يوماً وارعدت الخصيلا
فاهصر كهصر الليث خضـ ـب من فريسته الثليلا
وانزل الى الهيجا اذا ☆ ابطالها كرهوا النزولا
واذا دعيت الى المهـ ـم فكن لفادحه حمولا

ويقول النابغة الجعدي بعد أن عمر في الجاهلية عمراً طويلا ثم اسلم:

تذكرت والذكرى تهيج للفتى
ومن حاجة المحزون ان يتذكرا
نداماي عند المنذر بن محرق
أرى اليوم منهم ظاهر الارض مقفرا

تقضى زمان الوصل بيني وبينها
ولم ينقض الشوق الذي كان أكثرا

الى أن يقول :

وانا لقوم ما نعود خيلنا
اذا ما التقينا ان تحيد وتنفرا

وننكر يوم الروع الوان خيلنا
من الطعن حتى نحسب الجون اشقرا

وليس بمعروف لنا أن نردها
صحاحاً ولا مستنكراً ان تعفرا

أتينا رسول الله اذ جاء بالهدى
ويتلو كتاباً كالمجرّة نيرا

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا
وانا لنرجو فوق ذلك مظهراً

ولا خير في حلم اذا لم يكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل اذا لم يكن له
حليم اذا ما أورد الامر اصدرا

ويقول أمير الشعراء شوقي بك قبيل وفاته يرثي شاعر النيل بقصيدته التي مطلعها :

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ✡ يا منصف الموتى من الاحياء
لكن سبقت وكل طول سآمة ✡ قدر وكل منية بقضاء
الحق نادى فاستجبت ولم تزل ✡ بالحق تحفل عند كل نداء

ومنها :

ما زلت تهتف بالقديم وفضله ✡ حتى حميت امانة القدماء
جددت اسلوب الوليد ولفظه ✡ واتيت للدنيا بسحر الطاء
وجريت في طلب الجديد الى المدى ✡ حتى اقترنت بصاحب البؤساء
ما ذا وراء الموت من سلوى ومن ✡ دعة ومن كرم ومن اغضاء
اشرح حقائق ما رأيت ولم تزل ✡ أهلاً لشرح حقائق الاشياء
رتب الشجاعة في الرجال جلائل ✡ واجلهن شجاعة الآراء

ولولا مخافة التطويل لزدت الاخ الكريم من الدلائل الواضحة حتى يأتي مقراً ببطلان نظريته «الفتية» ، أما الاشعار التي أتيت بها في مقام الاستشهاد فنترك أمرها للقراء الكرام يحكمون بركاكتها وضعفها أو بعذوبتها وانسجامها .

وبعد فهل نسلم له ابتكار النظرية ؟ الحق ان ذلك حل لبيتين من الشعر الشرقي وليس بوحي الهامي نزل عليه كما يقال «من عل» والشاعر هو الاخطل الصغير والبيتان هما :

الهوى والشباب والامل المنشو ✡ د توحى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والامل المنشو ✡ د ضاعت جميعها من يديا

يقول هذا معرضاً بشوقي في شيخوخته ، وهل يمكن في وقت من الاوقات ان نجعل سفسطة الشاعر قاعدة نعتمدها في البحوث وخيال الشعراء مقياساً نقيس به الحقائق ؟...

وقد آن لي ان أقول لك ان الناقض نسي ايضاً ما قدمت يداه من القاعدة التي اعتمدها قبل ، وأخذ يناقضها بعد ان ادى النصيحة للشعراء فقال : « ولو ان شاعرنا صرف جانباً من وقته في المطالعة والاستفادة وتتبع النهضة الشرقية ويقايس فكره على بنات افكار معاصريه ويحذو حذوهم لانتفع به الادب وربما امكن ان يفاخر به المغرب . »

ان هذا كما تعلم دواء ناجع اكتشفه « الدكتور ابن عباد » لاسترجاع طور ونشاط وزهرة الشباب ، فعلى من فنى جسمه وخمدت قريحته بمطالعة الكتب التي ذكرها فانه يصير شاباً ظريفاً يفيض شعراً وشعورا .

وملخص ما يقول هنا ان الشعر تابع للبئة التي يعيش فيها الشاعر يزدهر بازدهارها ويذبل بذبولها ، فليست البئة التي يعيش فيها الشاعر المطبوع الان هي نفسها التي عاش فيها قبل والا لما امكن ان يسفل شعره .

ومما يحسن بي ان انبه عليه ان الشاعر القباج يعترف بان شعره الآن غيره بالامس وان انكر ذلك الاخ « ابن عباد » ولم يكن هذا الاعتراف امام شخص واحد فقط بل بمرأى ومسمع من جماعة من ادباء مراكش واعطانا نظرية طويلة الذيل وانتقد بعض الاشعار انتقاداً مراً وذلك في مجلس حافل بمراكش نتعرض للكلام عليه في مقال يخصه بحول الله .

ان الفضل الكبير في هذه الحركة الادبية النقدية يرجع للاخ « ابن عباد » فهو الذي ايقظها بعد رقادها وقدحها بعد خمودها ، ونعلم انه لا يثنيه على عزمه ما كتبت انا وغيري ما دام يعلم « من الف فقد استهدف » ، ولم يكن قصدي بهذه الكتابة تثبيط

عمله بل كل ما هناك انه اراد زوال الفوضى الادبية الشعرية والكتابية واردت زوال الفوضى الادبية النقدية ، فكلانا يريد الاصلاح ومن افسد شيئاً اليوم فسيصلحه في الغد ، والله الموفق .

ابن تاشفين

***

ليس هذا بعشك فادرجي

قرأت في مجلة شعبان نقداً تحت ترجمة الشنجيطي بامضاء ابن عباد ولااخال ابن عباد هذا من آل عمرو ذي الطوق فقال أول نقده ألسنا نرى الشنجيطي في قصيدته العيدية المتأخرة يمهد بالنسيب الى أن قال وقد نفر الناس من هذه العادة وصارت منبوذة الخ

ونحن نقول له ان الناس اليوم ينفرون من الفضائل والعوائد الحسنة بل ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا نفروا من الغزل في الشعر فانما نفروا من منهاج مشى عليه الشعراء في الجاهلية والاسلام وأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلكه أئمة الدين المقتدى بهم الى يوم الدين ، دخل كعب بن زهير على النبي صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الصبح فمثل بين يديه وأنشد :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم اثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا
الا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة
لا يشتكى قصر منها ولا طول
ما ان تدوم على حال تكون بها
كما تلون في أثوابها الغول
ولا تمسك بالعهد الذى وعدت
الا كما يمسك الماء الغرابيل
ولا يغرنك ما منّت وما وعدت
ان الاماني والاحلام تضليل

ثم خرج من هذا الى مدح النبي صلى الله عليه وسلم فكساه بردا اشتراه منه معاوية بعشرين ألفاً .

ودخل شاعر المدينة فقصد الى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فاذا بأبي هريرة رضي الله عنه قد أكب الناس عليه يسألونه فقال أفرجوا لي عنه فأفرجوا له فقال له انما أقول هذا :

طاف الخيالان فهاجا سقما
خيال لبني وخيال تكتمى
تريك وجهاً ضاحكاً ومعصما
وساعداً عبلا وكفاً أبرما

فما تقول فيه فقال قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد مثل هذا في المسجد فلا ينكره .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وهو أحد فقهاء المدينة السبعة :

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم
ولامك أقوام ولومهم ظلم
ونم عليك الكاشحون وقبل ذا
عليك الهوى قد نم لو نفع النم
فيا من لنفس لا تموت فينقضي
عناها ولا تحيى حياة لها طعم
تجنبت اتيان الحبيب تأثما
الا أن هجران الحبيب هو الاثم

وقال عروة بن اذينة وهو من فقهاء المدينة وعبادها :

قالت وأبثتها وجدي وبحت به
قد كنت عندي تحت الستر فاستتر
أأنت تبصر من حولي فقلت لها
غطى هواك وما القى على بصري

ووقفت امرأة على عروة هذا فقالت أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وانت القائل :

اذا وجدت اوار الحب في كبدي
غدوت نحو سقاء الماء أبترد
هذا بردت ببرد الماء ظاهره
فمن لنار على الاحشاء تتقد

والله ما قال هذا رجل صالح وكذبت بل هو الرجل الصالح ولكنه كان مصدوراً فنفث .

وقال الشيخ المحدّث الفقيه الناسك عبد الله بن المبارك

زعموها سألت جارتها ✡ وتعرت ذات يوم تبترد
أكما تنعتني تبصرني ✡ عمركن الله لم لا تقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها ✡ حسن في كل عين من ترد
حسداً حملته من شأنها ✡ وقديماً كان في الحب الحسد

وقال شريح القاضي وكان من جملة التابعين والعلماء المقدّمين استقضاه علي ومعاوية رضي الله عنهما وكان تزوج امرأة من بني تميم تسمى زينب فنقم عليها فضربها ثم ندم :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم
فشلت يميني حين اضرب زينبا

أأضربها في غير ذنب اتت به
فما العدل مني ضرب من ليس اذنبا

فزينب شمس والنجوم كواكب
اذا برزت لم تبد منهن كوكبا

ان لنا في هؤلاء اسوة حسنة دون تحويلنا عنها خرط القتاد.

ثم قال الناقد وفي بقية نسيبه لا يزال يحن ويئن الى أن قال وأين ينتهي من مرّ الشكوى وحرّ اللوعة يتخلص ببيت لا صلة له مع ما قبله الخ ...

صدق الناقد ولا أزال احن لهذا الوقت ومثلي في غزلي وشكواي وتخلصي مثل المتنبي يمدح عبيد الله بن خراسان :

أظبية الوحش لولا ظبية الانس
لما غدوت بجد في الهوى تعس

ولا سقيت الثرى والمزن مخلفه
دمعاً ينشفه من لوعة نفسي

ولا وقفت برسم مسى ثالثة
ذي ارسم درس في الارسم الدرس

صريع مقلتها سآل وجنتها
قتيل تكسير ذاك الجفن واللعس

خريدة لو رأتها الشمس ماطلعت
ولو رآها قضيب البان لم يمس

ما ضاق قبلك خلخال على رشأ
ولا سمعت بديباج على كنس

ان ترمني نكبات الدهر عن كثب
ترم امرأً غير رعديد ولا نكس

يفدي بنيك عبيد الله حاسدهم
بجبهة العير يفدى حافر الفرس

وكان في اذني الناقد طنيناً مما يسميه البديعيون براعة التخلص أو حسن التخلص وهو أن يستطرد الشاعر من الغزل أو الفخر أو غير ذلك الى مدح ممدوحه بأحسن نوع يمكنه من أنواع البديع الظريف يختلس ذلك اختلاساً رشيقاً وهي طريقة اعتنى بها المولدون دون المتقدمين مع أنها مستنبطة من كلامهم فانهم ولاة هذا الشأن لكنهم كانوا يوثرون عدم التكلف ولا يرتكبون من فنون البديع الا ما خلا من التعسف والطريقة التي مشى عليها غالب العرب وغالب المخضرمين وكثير من شعراء المولدين تسمى بالاقتضاب وهو أن ينتقل الشاعر من معنى الى معنى آخر من غير تعلق بينهما كأنه استهل كلاماً آخر وها نحن نسرد لك جملة من الاقتضاب وبراعة التخلص مع نبذة أشعار مما قبل المخلص وما بعده خدمة للغة القرآن الشريف وآدابها قال النابغة الذبياني يمدح عمرو بن الحرث الاعرج ابن الحرث الاكبر بن أبي شمر :

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل اقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذي يرعى النجوم بئائب

وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

علي لعمرو نعمة بعد نعمة
لوالده ليست بذات عقارب

حلفت يميناً غير ذي مثنوية
ولا علم الا حسن ظن بصاحب

الى آخرها وهي طويلة ، وقال يرثي النعمان :

دعاك الهوى واستجهلتك المناهل
وكيف تصابى المرء والشيب شامل

الى أن قال في وصف عيروا تانه وتخلص

اذا جاهدته الشد جد وان ونت
تساقط لا وان ولا متخاذل

وان هبطا سهلا أثارا عجاجة
وان علوا حزناً تشظت جنادل

ورب بني البرشاء ذهل وقيسها
وشيبان حيث استبهلتها المناهل

لقد غالني ما سرها وتقطعت
لروعاتها مني القوى والوسائل

فلا يهنئ الاعداء مصرع ملكهم
وما عتقت منهم تميم ووائل

الى آخر المرثية المشهورة .

وقال علقمة الفحل في قصيدة مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم
أم حبلها اذنأتك اليوم مصروم

أم هل كبير بكى لم يقض عبرته
أثر الاحبة يوم البين مشكوم

الى أن قال متخلصاً بعد وصف ظليم ونعامة الى مراده من وصف أحوال الدنيا واختلاف الناس فيها :

يوحي اليها بانقاض ونقنقة
كما تراطن في افدانها الروم

صعل كأن جناحيه وجؤجؤه
بيت أطافت به خرقاء مهجوم

تحفه هقلة سطعاء خاضعة
تجيبه بزمار فيه ترثيم

بل كل قوم وان عزوا أو ان كثروا
عريفهم بأثافي الشر مرجوم

والجود نافية للمال مهلكة
والبخل مبق لاهليه ومذموم

وقال زهير بن أبي سلمى المزني يمدح الحرث بن عوف وهرم ابن سنان ويذكر سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان وتحملهما الحمالة في معلقته التي أولها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم

ودار لها بالرقمتين كأنها
مراجع وشم في نواشر معصم

الى أن يقول متخلصاً بعد وصف الظعائن :

كأن فتاة العهن في كل منزل
نزلن به حب الفنا لم يحطم

فلما وردن الماء زرقا جمامه
وضعن عصى الحاضر المتخيم

سعى ساعياً ابن مرة بعد ما
تنزل ما بين العشيرة بالدم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم

يميناً لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سجيل ومبرم

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقال يمدح ثاني السيدين السالفين :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعرى أفراس الصبا ورواحله

وأقصرت عما تعلمين وسددت
على سوى قصد السبيل معادله

الى أن ذكر في الصيد وليده وفرسه وتفرقتها بين عيروأتان وتخلص لممدوحه يتغنى بفواضله :

فرد علينا العير من دون ألفه
على رغمه يدمي نساه وفائله

فزحنا به ينضو الجياد عشية
مخضبة ارساغه وعواماله

بذي ميعة لا موضع الرمح مسلم
لبطء ولا ما خلف ذلك خاذله

وأبيض فياض يداه غمامة
على معتفيه ما تغب فواضله

بكرت عليه غدوة فرأيته
قعود لديه بالصريم عواذله

يفدينه طوراً وطوراً يلمنه
واعيا فما يدرين اين مخاتله

فاقصرن عنه عن كريم مرزأ
عزوم على الامر الذي هو فاعله

أخي ثقة لا يتلف الخمر ماله
ولكنه قد يهلك المال نائله

تراه اذا ما جئته متهللا
كأنك تعطيه الذي انت سائله

وقال يمدحه :

ان الخليط أجد البين فانفرقا
وعلق القلب من أسماء ما علقا

وفارقتك برهن لا فكاك له
يوم الوداع فامسى الرهن قد غلقا

ثم قال يصف ماتحا يتغنى ويأخذ غرباً فيصب ماءها للنوق في جدول فيه ضفادع واضرب متخلصاً :

وقائل يتغنى كلما قدرت
على العراقي يداه قائماً دقفا

يجيل في جدول تحبو ضفادعه
حبو الجواري ترى في مائه نطفا

يخرجن من شربات ماؤها طحل
على الجذوع يخفن الغم والغرقا

بل أذكرن خير قيس كلها حسبا
وخيرها نائلاً وخيرها خلقا

القائد الخيل منكوباً دوابرها
قد احكمت حكمات القد والابقا

وقوله لما اخذ الحرث بن زرقاء الاسدي ابله وراعيه يساراً وهي من غرر قصائده

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا
وزودوك اشتياقاً اية سلكوا

رد القيان جمال الحي فاحتملوا
الى الظهيرة أمر بينهم لبك

الى أن يقول متخلصاً بعد وصف صقر كان يطارد قطاة فالتجأت الى مكان فتركها ونزل على مرقبة

فزل عنها وأوفى رأس مرقبة
كمنصب العتر دمى رأسه النسك

هلاً سألت بني الصيداء كلهم
بأي حبل جوار كنت امتسك

فلن يقولوا بحبل واهن خلق
لو كان قومك في اسبابه هلكوا

يا حار لا أرمين منكم بداهية
لم يلقها سوقة قبلي ولا ملك

اردد يساراً ولا تعنف عليه ولا
تمعك بعرضك ان الغادر المعك

ولا تكونن كاقوام علمتهم
يلوون ما عندهم حتى اذا نهكوا

طابت نفوسهم عن حق خصمهم
مخافة الشر فارتدوا لما تركوا

تعلمن ها لعمر الله ذا قسما
فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك

لئن حللت بجو في بني اسد
في دين عمرو وحالت بيننا فدك

لياتينك مني منطق قذع
باق كما دنس القبطية الودك

وهذا آخرها لم ينثن عنان القلم دونه وقال طرفة بن العبد

اشجاك الربع أم قدمه ✲ أم رماد دارس حممه
كسطور الرق رقشه ✲ بالضحى مرقش يثمه

واستمر يصف الرسوم الى ان تخلص لمراده وهو استضعاف اعدائه وهوانهم فقال

لا أرى الا النعام به ✲ كالاما اشرفت حزمه
تذكرون اذ تقاتلكم ✲ لا يضر معدماً عدمه
أنتم نخل نطيف به ✲ فاذا ما جز نصطرمه

وقال من قصيدة اخرى متخلصاً بعد وصف الديار وقطينها الى هجو عبد عمر بن بشر بن مرثد وقد اطلعه على سر فمشى به الى عمرو ابن هند

فغيرن آيات الديار مع البلى ✲ وليس على ريب الزمان كفيل
بما قد أرى الحي الجميع بغبطة ✲ اذ الحي حي والحلول حلول
ألا أبلغا عبد الضلال رسالة ✲ وقد يبلغ الانباء عبداً رسول
دببت بسري بعد ما قد عرفته ✲ وأنت بأسرار الكرام نسول
وكيف تضل القصد والحق واضح ✲ وللحق بين الصالحين سبيل

وقال عنترة ابن شداد يذكر يوم الفروق وتخلص بعد بيتين

ألا قاتل الله الطلول البواليا ✲ وقاتل ذكراك السنين الخواليا
وقولك للشيء الذي لا تناله ✲ اذ ما هوا حلولى الاليت ذاليا
ونحن هنعنا بالفروق نساءنا ✲ نطرق عنها مشعلات غواشيا
حلفنا لهم والخيل تردي بنا معاً ✲ نزايلكم حتى تهروا العواليا

وقال يذكر يوماً بين عبس وبني تميم متخلصاً بعد خمسة ابيات

طال الثواء على رسوم المنزل
بين اللكيك وبين ذات الحومل
فوقفت في عرصاتها متحيراً
اسل الديار كفعل من لم يذهل
لعبت بها الانواء بعد انيسها
والرامسات وكل جون مسبل

أفمن بكاء حمامة في ايكة
ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل
كالدر أو فضض الجمان تقطعت
منه عقائد سلكه لم يوصل
لما سمعت دعاء مهرة اذ دعا
ودعاء عبس في الوغى ومجلجل
ناديت عبساً فاستجابوا بالقنا
وبكل ابيض صارم لم ينحل

هذه امثلة من مخلص الاقتضاب فليمدد الناقد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يجدن من صلة بين هذه المخالص وبين ما قبلها واليك امثلة من حسن التخلص وهو كما قدمنا مأخوذ من كلام الاقدمين وعقد عليه المولدون الخناصر واشتدوا في اثره حتى أوقعهم ذلك في مخالص قبيحة ستمر بك آخر هذا الفصل قال زهير ابن أبي سلمى

ان البخيل ملوم حيث كان ولـــكن الكريم على علاته هرم

فانظر كيف وثب هذا العربي القديم من الشطر الاول الى الشطر الثاني وثبة تدل على القوة والرشاقة من غير اعتناء وهذا هو الغاية القصوى عند المتأخرين ولم ياتوا باحسن منه وقال الفرزدق

وركب كان الريح تطلب عندهم
لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهي تلفهم
الى شعب الاكوار من كل جانب
اذا آنسوا ناراً يقولون ليتها
وقد حصرت ايديهم نار غالب

وقال أبو نواس

تقول التي من بيتها خف محملي ✡ يعز علينا ان نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ✡ بلى ان اسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ✡ جرت فجرى في اثرهن عبير
دعيني اكثر حاسديك برحلة ✡ الى بلد فيه الخصيب امير

وقال :

واذا جلست الى المدام وشربها ✡ فاجعل حديثك كله في الكاس
واذا نزعت عن الغواية فليكن ✡ لله ذاك النزع لا للناس
واذا اردت مديح قوم لم تمن ✡ في مدحهم فامدح بني العباس

ومن المخالص التي استحسنوها للبحتري قوله :

رباع تردت بالرياض مجودة ✡ بكل جديد الماء عذب الموارد
اذا راوحتها مزنة بكرت لها ✡ شآبيب مجتاز عليها وقاصد
كان يد الفتح بن خاقان اقبلت ✡ عليها بتلك البارقات الرواعد

ومنها لابي تمام وهو احسن للوثبة في بيت التخلص من الشطر الاول الى الشطر الثاني :

ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت ✡ نفسي على ألف سواك تحوم
لا والذي هو عالم ان النوى ✡ مروان ابا الحسين كريم

ومثله قوله :

فالارض معروف السماء قرى لها ✡ وبنو الرجاء لهم بنو العباس

ومن مخالص ابي الطيب الفائقة :

معكومة بسياط العز يطردها
عن منبت العشب يبغي منبت الكرم

وان كان مسروقاً من قول ابي تمام :

أمطلع النجم تبغي ان تؤم بنا ✡ فقلت كلا ولكن مطلع الجود

ومن سحر ابي الطيب الحلال ومعينه الزلال قوله :

ومطالب فيها الهلاك اتيتها ✡ ثبت الجنان كانني لم آتها
اقبلتها غرر الجياد كانما ✡ ايدي بني عمران في جبهاتها

وهذه القصيدة من معجزات احمد يمدح بها أبا أيوب احمد بن عمران المذكور بعد في قوله :

سقيت منابتها التي سقت الورى ✡ بيدي ابي أيوب خير نباتها

وفي غزلها يقول :

اني على شغفي بما في خمرها ✡ لا عف عما في سراويلاتها

وهنا يقول الصاحب بن عباد كانت الشعراء تصف المئازر تنزيهاً لالفاظها عما يستشنع حتى تخطى هذا الشاعر المطبوع الى التصريح وكثير من العهر عندي احسن من هذا العفاف ولكن أبا بكر الشعراني والخوارزمي رويناه واعف عما في سرابيلاتها جمع سربال وهو القميص يريداني مع حبي لوجوههن اعف عن ابدانهن ومثله لنفطويه :

اهوى النساء واهوى ان اجالسها ✡ وليس لي في خنى ما بيننا وطر

والموضوع بحاله في نقد ابن عباد قديماً وحديثاً ومن مخالص أبي الطيب الجيدة قوله يمدح علي بن أحمد بن عامر الانطاكي

اطاعن خيلا من فوارسها الدهر ✡ وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر
واشجع مني كل يوم سلامتي ✡ وما ثبتت الا وفي نفسها امر
تمرست بالآفات حتى تركتها ✡ تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

ولم يزل متحمساً مفتخراً على عادته الى ان قال :

ويوم وصلناه بليل كانما ✡ على افقه من برقه حلل حمر
وليل وصلناه بيوم كانما ✡ على متنه من دجنه حلل خضر
وغيث ظننا تحته ان عامرا ✡ علا لم يمت او في السحاب له قبر
اوابن ابنه الباقي علي بن احمد ✡ يجود به لو لم اجز ويدي صفر

ومن مخالصه المحمودة الحسنة كما يقول ابو البقاء العكبري البغدادي في قصيدته التي مطلعها :

عواذل ذات الخال في حواسد ✡ وان ضجيع الخود مني لماجد
يرد يدا عن ثوبها وهو قادر ✡ ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

الى ان يقول متخلصاً لمدح سيف الدولة بعد مدح نفسه :

خليلي اني لا ارى غير شاعر ✡ فلم منهم الدعوى ومني القصائد
فلا تعجبا ان السيوف كثيرة ✡ ولكن سيف الدولة اليوم واحد

ومن مخالص ابي العلاء احمد بن سليمان ولم يكن من طلاب الرفد قوله :

ولو ان المطي لها عقول ✡ وحقك لم تشد لها عقالا
مواصلة بها رحلي كاني ✡ من الدنيا اريد بها انتقالا
سالن فقلت مقصدنا سعيد ✡ فكان اسم الامير لهن فالا

وخذ الان ما وعدناك به من المخالص القبيحة التي لا تعد من البديع ليفتتح ذهنك في هذا الفن قال المتنبي من قصيدته التي يمدح بها علي بن ابراهيم التنوخي واولها :

ملك القطر اعطشها ربوعا ✡ والا فاسقها السم النقيا

حتى قال يخاطب محبوبته ويتخلص :

اخفت الله في احياء نفس ✡ متى عصى الاله بان اطيعا
غدا بك كل خلو مستهاما ✡ واصبح كل مستور خليعا
احبك او يقولوا جر نمل ✡ ثبيراً وابن ابراهيم ربعا

وسبب قبح هذا المخلص انه علق انقضاء حبها على غير ممكن وهو ان يجر النمل حبل ثبير او يخاف ممدوحه ليقرر ان كلا منهما من المستحيلات . ومن مخالصه القبيحة في قصيد مدح بها سعيد ابن عبد الله الخلالي مطلعها :

احيا وايسر ما قاسيت ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا
والوجد يقوى كما تقوى النوى أبداً
والصبر ينحل في جسمي كما نحلا
لولا مفارقة الاحباب ما وجدت
لها المنايا الى أرواحنا سبلا

الى أن يقول :

ها فانظري أو فظني بي ترى حرقاً
من لم يذق طرفاً منها فقد والا
عل الامير يرى ذلي فيشفع لي
الى التي تركتني في الهوى مثلا
أيقنت أن سعيداً طالب بدمي
لما بصرت به بالرمح معتقلا

وسبب قبحه أنه جعل ممدوحه ساعياً بينه وبين محبوبته في الوصال ولا خفاء في دنو هذه المرتبة قال الواحدي هو من قول أبي نواس :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد
هواك لعل الفضل يجمع بيننا

وقول أبي نواس أحسن من قول المتنبي لأن الجمع يمكن بأن يعطيه ما يتوصل به الى محبوبته والشفاعة تكون باللسان وذلك نوع قيادة على أني سمعت العروضي يقول سمعت الشعراني يقول لم أسمع أبا الطيب ينشده الا فيشفعني من قولهم كان وتراً فشفعته بآخر والى آخر فيكون كقول أبي نواس ويقول كاتبه محمد البيضاوي الشنجيطي عفا الله عن الواحدي فلم لا يقول أن قول أبي نواس أقل قبحاً من قول المتنبي فلا خير في القولين ولا حسن في واحد منهما حتى يتفاضلا فيه .

وقد سبقهما الى هذا قيس بن ذريح حين طلق لبنى وتزوجت غيره فندم على ذلك وشبب بها في كل معنى فرحمه ابن أبي عتيق فسعى في طلاقها من زوجها وأعادها الى قيس فقال يمدحه :

جزى الرحمن أحسن ما يجازي ✡ على الاحسان خيراً من صديق
فقد جربت أخواني جميعاً ✡ فما ألفيت كابن أبي عتيق
سعى في جمع شملي بعد صدع ✡ ورأي حدت فيه عن الطريق
وأطفأ لوعة كانت بقلبي ✡ اغصتني حرارتها بريق

فلما سمعها ابن أبي عتيق قال لقيس يا حبيبي امسك عن هذا المدح فما يسمعك أحد الا ظنني ساعياً وقد عصم الله شعر العرب الاقدمين من مثل هذه المخالص لقلة ما يسمى حسن التخلص في أشعارهم لسيرهم على مخلص الاقتضاب كما أسلفنا ومخلصنا يصح فيه الاعتباران اذا نظرت الى الموعظة قبله في قولنا وان في اللحية الشمطاء لي نذراً فهو دعاء واحتماء برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الاعتراف بالذنب والعظة فهو براعة تخلص وان قطعت النظر عما قبله فهو اقتضاب ولا مشاحة في الاصطلاح وهذا الذي كتبنا لك هو الشعر الذي يتعين حفظه ودرسه ليفهم المغربي المسلم وغيره من أبناء الاسلام الكتاب المبين والحديث الشريف وليحصل له ذوق سليم وملكة جيدة يقول فيعرب ويكتب فيعجب وينظم فيطرب وأما ما يحض عليه الناقد من تقليد أهل هذا العصر في كتابتهم وشعرهم فانا نعتقد انه مخطئ فيه لانهم أجهل من عرفنا في التاريخ باللغة العربية على الاجمال وبضاعتهم منها انما هي الترجمة التي بلغوا فيها شأواً بعيداً لضرورة الحال وكثرة الاستعمال فرسائلهم وقصائدهم لا تكاد تجد فيها من الجمل العربية ومفرداتها الا ما هو مترجم عن السنة الاعاجم وكفاك دليلا حافظة الناقد العامرة بكلمات الذوق العصري ومعجزة الفن ودقة التصوير وموقف الجمود وتخدير الاعصاب الى نحوها مما يدور عليه قلمه وكم من مترجم بارع في مهنته فاذا خرجت به عن دائرتها وقف لا يحسن خطابا ولا يحير جوابا كقاض ماهر في الفروع التي تقع بين اثنين اذا سئل عن مسألة سهو مثلا قال ما سمعت بهذه في الفقه قط وكهذا الناقد فانه لما خرج عن ألفاظ دقة التصوير وتخدير الاعصاب وأخواتها وأراد أن يقرأ الشعر وينقده نقداً علمياً عربياً التبست عليه الابنية والحروف واختلط حابله بنابله فقرأ احل في قولنا :

لما احل برأسي قلت مزدجرا ☆ الشيب في الرأس لا يستلزم الكبرا

مبنياً للفاعل وازناً له على ألمّ في قول البوصيري.

ولا أعدت من الفعل الجميل قرى
ضيفي ألمّ برأسي غير محتشم

وقال ان أحل بمعنى وجب أو خرج ولا يقبله الوزن ولا المعنى.

ونحن نقول له ان أحل في بيتنا مبني للمفعول بضم همزه وكسر حائه بحركة ما قبل الاخر المدغم وهو من أحله المكان وأحله به اذا أنزله فيه وليس معناه وجب ولا خرج ومنه قوله تعالى : « الذي أحلنا دار المقامة من فضله » وقول قيس بن الخطيم :

ديار التي كانت تحل على منى ☆ تحل بنا لولا نجاء الركائب

ولأحل معاني اخرى يصح بناؤه للفاعل اذا اعتبرت منها ما في حديث النخعي أحل بمن أحل بك ومنها قول امية بن الصلت

غيوث تلتقى الارحام فيها ☆ تحل بها الطروفة واللجاب

ولكننا لم نقصدها وبنيناه للمفعول اسناداً للفاعل الحقيقي الذي هو الله تبارك وتعلى عند شعراء الاسلام الموحدين ثم اسندنا الى المجازي في البيت بعده

فانحط في عارضي بهوى الى ذقني ☆ وان في اللحية الشمطاء لي نذرا

على حد قول أبي النجم في الاسناد للمجازي أولا وللحقيقي ءاخراً

قد أصبحت أم الخيار تدعي ☆ عليّ ذنباً كله لم اصنع
من ان رأت رأسي كرأس الاصلع ☆ ميز عنه قنزعاً عن قنزع
جذب الليالي ابطئي أو اسرعي ☆ افناه قيل الله للشمس اطلعي
حتى اذا واراك افق فارجعي

وقرأ قولنا في ابيات مكناس

وماؤها السلسبيل العذب باكره
ريح هو المسك انفاس فانفاس

بباء جر بدل فاء العطف فكتب انفاس بانفاس وقال ان الاقواء ظاهر في القافية الاخيرة فنقول له ان هذا البيت ليس هو الاخير فليقرأ بعده على شرط ان لا يحرّف قولنا في مدح صفينا النقيب ابن زيدان

يكفي مدينتها أن الكبير بها
يضيء من علمه الفياض مقباس
الى روائح من اخلاقه عبقت
ما الرند منها وما الريحان والاس

والابيات في الجزء الاول من تاريخ الشريف المذكور بصحيفة ٢٤٦ لا اقواء فيها ولا ايطاء ويظهر ان الناقد ممن لم يأخذوا العلم عن الشيوخ فهو يلتقط ما يجده في الكتب والصحائف من غير تمييز بين الخطا والصواب واستغفر الله لي وله ولسائر المسلمين.

محمد البيضاوي الشنجيطي